إذن، انصب الرفض الفلسطيني في الأساس ضد المطلب الصهيوني، وليس ضد الوجود البريطاني. وقد نجم، عن هذا، ضياع جهود كبيرة بذلتها الحركة الوطنية الفلسطينية، في محاولات حمل الحكومات البريطانية المتعاقبة على سحب تأييدها للمطلب الصهيوني، كي ينفتح أمامها باب التعاون مع العرب المستعدين لقبول منحها العديد من المزايا، بما في ذلك قبول الانتداب، إذا اقتضى الأمر. وعندما ذهب الوفد العربي الفلسطيني إلى لندن برئاسة موسى كاظم الحسيني سنة ١٩٢١، كان مخولاً، على ما يبدو مما تكشفه الوثائق القليلة المتاحة، بالتفاوض مع المسؤولين البريطانيين على أساس أن تتخلى بريطانيا عن وعد بلفور، مقابل القبول الفلسطيني بالانتداب، حتى أن رئيس الوفد استاء من موافقة عضو الوفد، أكرم زعيتر، على مقررات المؤتمر السوري ــ الفلسطيني التي نادت بانهاء الانتدابين البريطاني والفرنسي، وبجلاء قوات الدولتين وكتب له معتبراً أن خطة المؤتمر بهذا الصدد جاءت «نتيجة حماس وطني زائد ولا تنطبق على خطتنا التي قررناها هنا، وفقاً للحالة الحاضرة ولمقررات المؤتمرات، ولا نعلم الضرورة التي أدت بكم لأن تصرحوا برفض الانتداب، صراحة عارية». وكشف كاظم الحسيني، في رسالته لزعيتر (١٩٢١/٩/١٠)، النقاب عن «أن اتفاقنا، قبل سفركم، في موضوع اشتراكنا في المؤتمر السوري، كان مقيداً بأن تُقبل خطتنا التي قررناها وأمضيناها كلنا وقررنا أن نستشير بعضنا، في المواضيع الهامة، قبل البت فيها»[٢٣]. هذه الخطة، المتفق عليها، يكشف بعض بنودها رد زعيتر، على رسالة رئيسه في ١٩٢١/٩/١٣، حين يقول: إن خطتهم ومقررات المؤتمرات، بخصوص الانتداب، ترمي كلها «إلى رفض الانتداب المبني على أساسات وعد بلفور رفضاً باتاً صريحاً. وإلى إضمار البحث، فيما يتعلق بقبول الانتداب العاري عن وعد بلفور أو رفضه» وذلك، حسب زعيتر، «لبينما يتسنى لنا الوصول إلى درجة تخولنا المفاوضة، على شكله وتحديده» مع الحكومة البريطانية[٢٤].

أسباب التقصير

هل يكفي أن ننسب الخلل، في موقف الحركة الوطنية الفلسطينية، إلى الجهل بطبيعة الصلة بين بريطانيا ــ الصهيونية؟ لا شك في أن هذا الجهل، هو أحد الأسباب، لكنه لم يكن السبب الوحيد، وربما لم يكن السبب الأول، أو الحاسم. فهناك، إلى جانب هذا، مجموعة العوامل التي أملت، في السابق، وقوف الحركة العربية القومية إلى جانب بريطانيا، في الحرب؛ وفي جذر هذه العوامل تكمن رغبة البرجوازية العربية الناشئة، وخصوصاً في بلاد الشام، للاستفادة من علاقاتها بدول الغرب المتطورة، ضد التخلف العثماني. وهذه الرغبة كانت لا تزال تمارس تأثيرها على الحركة الوطنية الفلسطينية، التي شكلت البرجوازية، المدينية الناشئة، لحمتها، وانضم إليها ملاكو الأرض، المتوسطون والصغار، لأن أرضهم بالذات، بما هي مورد رزقهم، كانت مهددة بالمشروع الصهيوني، في حين كان الاقطاع الكبير ميالاً لبيع الأرض، واستثمار الأموال التي يحصل عليها، في المشاريع التجارية أو الصناعية، فكان، لهذا، هو الأسرع في التفريط بملكية الأرض أمام المبالغ المغرية التي عرضها الصهيونيون. أما الظروف الدينية ـ التاريخية التي فرضت رموزاً بعينها، على رأس قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية، فإنها لم تصمد أمام رغبة